Dirasat: Human and Social Sciences, Volume 51, No. 1, 2024

Deanship of Scientific Research

Trips in “The Stranger’s Letter to the Beloved” Abu Asida Al-Baja’i: An objective study

Nawal Abdul Rhhman al-Shawabkeh**, Fatima Mohammad Olaimat

Department of Arabic Language and Literature, School of Arts, The University of Jordan, Amman, Jordan.

Received: 14/8/2022
Revised: 17/11/2022
Accepted: 12/02/2023
Published: 30/1/2024

* *Corresponding author:*
n.alshawabkeh@ju.edu.jo

Citation: al-Shawabkeh, N. A. R., & Olaimat, F. M. (2024). Trips in “The Stranger’s Letter to the Beloved” Abu Asida Al-Baja’i: An objective study. *Dirasat: Human and Social Sciences*, *51*(1), 439–446. https://doi.org/10.35516/hum.v51i1.1916

© 2024 DSR Publishers/ The University of Jordan.

This article is an open access article distributed under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY-NC) license https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

Abstract

Objectives: This study illuminates key aspects of Abu Asida al-Baja’i's travel literature, "The Stranger’s Letter to the Beloved." It aims to explore the literary and scientific value of the trip, offering insights beneficial to literary scholars, writers, and researchers in the field of travel literature. Despite its significance, this trip has not received the attention accorded to others in the past, warranting a closer examination.

Methods: The study adopted an inductive-analytical approach to trace the contents of the “The Stranger’s Letter to the Beloved”, and to present an overview of the conditions of the society and its surroundings.

Results: The study concluded that the trip is full of intense cognitive nature, which includes a huge amount of knowledge and topics in the cultural and civilized environment that emerged from it. In it was a presentation of a picture of the different aspects of life: religious, including religious rituals in the Hijaz, and proximity to the Messenger PBUH social and psychological, including praising friends and scholars, alienation, and nostalgia. Thus, it represents an important document that was translated for its owner and for the prominent figures of his era whom he met and his correspondence to his friend Al-Mishdali.

Conclusions: The study delves into Abu Asida Al-Bajai's diverse life experiences, covering social, religious, and intellectual dimensions with an artistic reflection of his era. Considering the results, it suggests an artistic approach to "The Stranger’s Letter to the Beloved," emphasizing key phenomena like intertextuality in its various forms.

Keywords: Al-Baja'i, “The Stranger’s Letter to the Beloved”, travel literature.

الرّحلة في "رسالة الغريب إلى الحبيب" لأبي عصيدة البجائي: دراسة في الموضوعات

نوال عبد الرحمن الشوابكة*، فاطمة محمد سليمان العليمات

قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن.

ملخّص

الأهداف: هدفت الدارسة إلى الوقوف على "رسالة الغريب إلى الحبيب" لأبي عصيدة البجائي، بغية البحث في أهم الموضوعات التي حوتها تلك الرّحلة، لما لها من قيمة أدبيّة وعلميّة، تفيد الأدباء والكتّاب والباحثين في أدب الرّحلة، لا سيّما أنّ تلك الرحلة لم تنل حظّها من الدراسة والشهرة التي نالتها غيرها من الرّحلات.

المنهجيّة: اعتمدت الدراسة المنهج الاستقرائيّ التحليليّ، الذي تمثّل في تتبع موضوعات "رسالة الغريب إلى الحبيب"، وتقديم صورة عند أوضاع المجتمع في عصر البجائي وما يحيط به.

النتائج: خلصت الدراسة إلى أنّ الرّحلة زاخرة بطابع معرفيّ كثيف، ضمّ كمًّا هائلًا من المعارف والموضوعات في بيئة ثقافيّة وحضاريّة انبثقت عنها؛ بحيث قدّمت صورة لجوانب الحياة المختلفة: الدينيّة، ومنها: الشعائر الدينيّة في الحجاز، ومجاورة الرسول – عليه الصلاة والسلام- والاجتماعيّة والنفسيّة، ومنها: مدح الأصدقاء والعلماء، والغربة والحنين؛ وبذا فإنّها تمثّل وثيقة مهمة ترجمت لصاحبها ولأعلام عصره الذين التقاهم ومراسلاته لصديقه المشداليّ.

الخلاصة: بيّنت الدراسة صور الحياة المختلفة التي عاصرها أبو عصيدة البجائي؛ حيث ضمت موضوعات عديدة لأبعاد اجتماعيّة ودينيّة وفكريّة تناولها الرّحالة بأسلوب عكس الخصائص الفنيّة لعصره، والدراسة هنا في ضوء نتائجها، توصي بتناول "رحلة الغريب إلى الحبيب" تناولًا فنيًّا يقف على أهم الظواهر التي تتوفر عليها؛ من مثل ظاهرة التناص بأشكالها المختلفة.

الكلمات الدالة: البجائيّ، رسالة الغريب إلى الحبيب، أدب الرّحلات.

المقدمة

تُعدّ الرحلات من أهم المصادر الجغرافيّة والاجتماعيّة والتاريخيّة؛ لأنّ الرّحالة يوثّق لمعلوماته عن طريق الانتقال والارتحال المباشر والمشاهدة الواقعيّة الحيّة، ويندرج تحت هذا النوع من التوثيق عدد كبير من القصص والسّير والمذكرات، وغيرها من أشكال النثر الفنّي التي تُسمّى بأدب الرحلات؛ لما تمتاز به من سرد ممتع وقصّ غنيّ بالأحداث والشخوص، "فالرحلات منابع ثرّة لمختلف العلوم؛ وهي بمجموعها سجل حقيقيّ لمختلف مظاهر الحياة ومفاهيم أهلها على مرّ العصور" (حسين، 1976، ص5)

وتنوّعت الرحلات بعدّ دوافعها وأغراضها؛ فقد يتعرض الإنسان لعارض يدفعه لهجر وطنه فيغادره؛ بحثًا عن الكلأ والماء، أو هربًا من مصيبة كظلم حاكم، أو لظروف اجتماعيّة قاسية وما حلّ بمجتمعه من حروب وويلات ونكبات، وغير ذلك.

وقد عانى بعض الرّحالة الأندلسيين كغيرهم من ظروف أحاطت بهم، وأرغمتهم على مغادرة البلاد مكرهين، وهم يحملون وطنهم في قلوبهم، لذا فقد كانت الرحلة ضروريّة في حياة الأندلسيّ والمغربيّ، فرضتها عليهما مساحة الأندلس الواسعة، وبعدها عن المشرق، وتكالب الأعداء عليها، "وكان لحنين المغاربة وتشوّقهم للأماكن المقدّسة، لون خاص نبع من بعد بلادهم عن الحجاز، وما يتجشّمونه في الرّحلة إليها، فكان الوصول إلى الأماكن المقدّسة عندهم غاية الإدراك وأمنية الأماني" (محمد، 1987، ص214)

لذا فقد مثّل الدّافع الدّيني السبب الرئيسيّ لأغلبية الرّحالة المتوجهين إلى المشرق الإسلاميّ؛ حيث يشدّون الرّحال من كلّ حدب وصوب إلى الحجاز والأماكن المقدّسة؛ لأداء فريضة الحجّ، قال تعالى:﴿ *وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ*﴾ (سورة الحج، الآية 27)

وقد ذكر ابن خلدون في مقدمته: "أنّ رحلة المغاربة كانت غالبًا إلى الحجاز، وهو منتهى سفرهم والمدينة يومئذ دار العلم..." (ابن خلدون، 2001، ص771).

ويرى نقولا زيادة، أنّ رحلة المغاربة إلى المشرق كانت على وجه العموم أكثر من رحلة المشارقة إلى الغرب، فمركز الحجّ في المشرق ومدن العلم الأولى فيه، فكان من الطبيعي أن يزور المغاربة الشرق أكثر من زيارة المشارقة لبلادهم. (زيادة، 1962، ص167)

ورحلة أبي عصيدة البجائيّ "رسالة الغريب إلى الحبيب" مراسلة مطوّلة بعث بها من الحجاز عندما كان مجاورًا للحرم النبويّ، إلى صديقه أبي الفضل المشداليّ الذي كان في مصر (البجائيّ،1993 ص15) وقد حقّقت لصاحبها، ما صبت إليه نفسه من أمل في مجاورة الرسول – صلّى الله عليه وسلّم - كما "أنّه حقّق الراحة النفسيّة واطمئنان البال وقضى أوقاته في التدريس" (سعد الله، 1990، ج9، 10، ص623-627). والبجائي جمع إلى رحلته الحجازيّة رحلة علميّة وهي "ذات غرض علميّ ومتجلّية في لقاء الشيوخ والعلماء والأخذ عنهم والتتلمذ عليهم وربط الصلة بسندهم". (الياقوت، ص11)

وجاءت رحلة البجائيّ، لتضمّ الكثير من الموضوعات التي أفادت في معرفة الأوضاع العلميّة والاجتماعيّة والأدبيّة والأحوال النفسيّة. (البجائيّ، ص6، 21-24). وذكر البجائيّ مشيرًا إلى رحلته ومخاطبًا صديقة المشداليّ، أنّه كتب إليه بتاريخ ذي الحجة (856هـ) ردًّا على رسالة العتاب التي وجهها المشداليّ لأبي عصيدة وكانت الباعث الرئيس لكتابة "رسالة الغريب إلى الحبيب". (البجائي، 1993، ص52)

ويصف أبو القاسم سعد الله مخطوط الرحلة، أنّه جاء في (75) ورقة وضم ورقة غير مرقّمة بين (7) و(8) حسب الترقيم الحالي للرحلة ويبدأ المخطوط من ورقة رقم (4)، والخط مغربيّ، ولكن صفحة العنوان كُتبت بخط مختلف فيه تفنّن، وعدد الأسطر في كلّ صفحة (18) سطرًا والنص كامل. (البجائي، ص5-16)

وقد اشتملت الرسالة على النثر والشعر "أمّا النثر فهو من إنشاء أبي عصيدة... ونثره يدل على تمكّنه من صناعة الأدب، ومن المحفوظات الغزيرة. أمّا الشعر فقد خرج فيه بين نظمه هو ونظم غيره". (البجائيّ، ص 17-18). ومن الدراسات التي تناولت رحلة أبي عصيدة البجائيّ "رسالة الغريب إلى الحبيب"؛ دراسة آمنة بدويّ "الرّحالة الأندلسيون والمغاربة ورحلاتهم من (ق3هـ-ق9هـ) تقصّ وعرض، ودراسة أبي القاسم سعد الله "رحلة أبي عصية البجائيّ، من بجاية إلى الحجاز" ودراسة عبدالله الياقوت "أدب الرحلة الحجازيّ، عند الأندلسيين، من القرن السادس حتى سقوط غرناطة"، ودراسة نوال الشوابكة "أدب الرحلات الأندلسيّة والمغربيّة حتّى نهاية القرن التاسع الهجريّ"، غير أنّ هذه الدراسات لم تتعمّق في تناول موضوعات رحلة البجائيّ وتصوير أوضاع المجتمع في عصره.

أبو عصيدة البجائيّ

لم يُعثر على ترجمة للرّحالة أبي عصيدة البجائيّ في كتب التراجم، سوى النبذة التي ساقها هو نفسه في رسالته إلى صديقه أبي الفضل المشداليّ، وهو أحمد بن أحمد البجائي المنشأ والدار، الغسانيّ الأصل، عاش في القرن التاسع الهجريّ في الجزائر وتونس في أثناء العهد الحفصيّ، وكان زاهدًا في الدنيا لم يُعرف أنّ له ولدًا أو أسرة وربّما هرب من وطنه لسوء الأحوال السياسيّة والاجتماعيّة في الدولة الحفصيّة التي كانت تحكم تونس والشرق الجزائري، إضافة إلى نزوله الحجاز لمجاورة الرسول –صلى الله عليه وسلّم -، وكان يدرّس الحديث الشريف ويشرح صحيح مسلم في المسجد النبويّ وحوله جمع غفير من الطلاب والعلماء. (البجائي،1993، ص18-25، 64-65) استقرّ في المدينة المنوّرة إلى أن أدركته الوفاة حوالي منتصف القرن التاسع

الهجريّ (865هـ)، ويبدو أنّه قد احتمى بالحرم النبويّ من عثرات الزمان وعداوة الإنسان له.

موضوعات رحلة "رسالة الغريب إلى الحبيب"

يتضح من خلال رحلة "رسالة الغريب إلى الحبيب"، أنّ البجائي قد رحل مرتين إلى الحجاز، رحلته الأولى قال عنها أعوامًا، والرحلة الثانية قد طالت واستطالت أعوامها، وعاد إلى تونس ولم يواصل رحلته إلى موطنه بجاية. فظلّ هناك يراسل بعض الأعلام من وطنه، ومنهم المشداليّ الذي كان في القاهرة، ورسالة البجائيّ للمشداليّ كانت إحدى ثمار تلك المراسلات، التي حوت الكثير من الأخبار والطرائف الأدبيّة والوقائع والمشاهدات والشذرات العلميّة، وقد حوت رحلة البجائي "رسالة الغريب إلى الحبيب" موضوعات متعددة إذ "كانت الرحلة تستمد وجودها من غرضها ومضمونها" (الضمادي، 2017، ص17)؛ **حيث تضمنت جوانب مختلفة منها:**

أولًا: الجانب الاجتماعيّ

- مدح الأصدقاء والعلماء وذكريات الحياة معهم والوفاء لصداقاتهم ومعاتبتهم

ترجم البجائي للكثير من العلماء والشيوخ والأصدقاء الذين التقاهم في رحلته، وجمع في هذه الترجمة معارف كثيرة، ونادرة أمدّتنا بها الرحلة، حيث افتتح أبو عصيدة رسالته بقصيدة أشاد فيها بصديقه أبي الفضل المشداليّ وبمكانته العلميّة وممّا قاله: (البجائيّ، 1993، ص42)

هذي مراسلة العبدِ الفقيرِ إلى ... كهفِ الأنامِ وفخر الوقتِ والسلفِ

أتته تنشرُ ما قد حاز من شيمٍ ... ومن جلالٍ ومن عزٍّ ومن شرفِ

وذكر في رسالته هذه أنّ صديقه سيد فقهاء الإسلام وأنّه ذو مفاخر علميّة ومحاسن أدبيّة... وأنّه من المحال أن ينسى صديقه، فقال: "وأمّا ما عند المملوك من ذلك فإنّه لا ينساكم ولا بعد الممات... إذ من المحال أن يخطر النسيان له ببال. (البجائي، 1993، ص44) ومن عتابه لصديقه المشداليّ لعدم ردّه على مراسلاته ومن ثم الاعتذار منه لما بدر منه من خطاب، قوله:

"وأمّا قول سيدي، أعاذه الله من الحقد والغضب...، بلغكم عن المملوك عتاب، فيه خشونة في اللفظ وشدة في الخطاب، بل والله إنّما كانت كلمات خفيفات صدرت عن فكرة ضئيلة من نفس عليلة، وعين المحبّ عمّن يحبّ كليلة، فالعبد يخبركم عن موجب ذلك العتاب إذا لا سرّ دونك ولا حجاب...". (البجائي، 1993، ص45)

كما ذكر في رسالته من العلماء؛ الإمام الغشداميّ والمزف، وبيلج، ومصرانة وهم من الطبقة العليا من أهل الزمان وأصحاب الغرائب والعجائب والمعاني والبيان ولم ترد لهم ترجمة في كتب التراجم. (البجائي، 1993، ص48)

ومن مدح البجائيّ للعلماء إشارته إلى القاضي فتح الدين أبي الفتح بن صالح؛ حيث قال عنه: "الإمام الأجل. مفتي المسلمين وقدوة الصالحين وخطيب المنبر الشريف وإمام محراب سيد المرسلين...". (البجائي، 1993، ص55، السخاوي، 124/11)

وممّن امتدحهم البجائيّ، أيضًا، فخر الدين عثمان الطرابلسيّ الشاميّ؛ فهو"رجل فاضل سيّد نبيل وجيه منقبض لنفسه مشتغل بما يعنيه، قرأ بالبلاد وتفقّه وتدرّب... قعد للإقراء بالحرم الشّريف...". (البجائي، 1993، ص93)

كما أثنى على الأستاذ اللغويّ أبي الفتح بن علي بن إسماعيل الأزهريّ المصريّ وقال: إنّ له في العربيّة باع مديد وفي هدفها سهم سديد، وله في الفقه على مذهب الإمام الشافعيّ معرفة لا يفارقها تسديد.." ومدح غيرهم أيضًا.(البجائي، 1993، ص94)

- فقد الأصدقاء وغيرهم في أثناء غيابه

ارتحل البجائي أول مرة من تونس إلى الحجاز؛ لقضاء حجة الإسلام وأقام فيها بعض أعوام، ثم عاد إلى بلده وعندما عاد وجد أن كثيرًا من الأئمة والأصدقاء والأعلام، "ومن كان بيننا وبينه محبة وصحبة وذمام. قد دارت عليه كؤوس الحمام، والتقطهم الموت.، ورحلوا إلى ديار البلى أفواجًا بعد أفواج، ثمّ سألت عمّن تركناه بالأوطان، من الأهل والسكان والأتراب والأخوان... فإذا الدّيار بلاقع ومقفرات، ومعارف أصبحت نكرات، وإذا الأحباب وجلّ الأتراب، قد شتّت شملهم هادم اللذات، وفرّق جمعهم مفرّق الجماعات، وصاروا في الأجداث والأكفان، ولحقوا بخبر كان...". (البجائيّ، 1993، ص73)

وقد قال في ذلك شعرًا: (البجائيّ، 1993، ص74)

ما ينفع الربع الرحيب وقد خلا ... من أهل ودّي ما هم والمنزل

وكأنّمـــا كانوا خيالًا طارقًا ... نادى الفراق بجمعهم فترحّلوا

أأروم من عيشي المقدّم رجعة ... من بعد ما ولّى الزمان المقبل

ولقد كان هذا أحد أسباب عدم حنينه لوطنه في الرحلة الثانية.

- الغربة وحلاوتها

الغربة تجعل الإنسان يعيش في كآبة وقلق؛ بسبب البعد عمّن يحبّهم ويرغب في قربهم، وللغربة عن الوطن ألم شديد، يدفع الإنسان إلى الحنين

للديار، والتّشوق لكلّ من فيها من الأهل والأحباب والأصدقاء.

إنّ للبجائيّ في هذا الأمر رأيًا خاصًا؛ حيث يرى "أنّ من لم يذق مرارة الفراق لا يدر حلاوة التلاق؛ إذا وصل الغريب إلى دار الحبيب وجد في التقريب كلّ أمر عجيب، وإذا وقف بالباب عرف لذة الاغتراب... فالعاقل يكون في نفسه غريبًا وقلبه في صدره غريبًا وروحه في ذاته غريبًا وسرّه في حاله غريبًا فلا يستريح من همّ الغربة ما لم يصل إلى الحبيب. ومن هنا يظهر لك سرّ معنى قوله عليه السّلام "كن في الدينا كأنّك غريب". (البخاري، 89/8) وبالحقيقة ما طاب عيش القوم إلا بعد ما هجروا الأوطان وتسلّوا عن الأهل والسكان (البجائي، 1993، ص75) وهذا أمر غريب" أن يكون شعور البجائيّ هكذا، في الوقت الذي نجده يرسل رسالة مطوّلة مليئة بالحزن والألم وتذكّر الأيام الجميلة إلى صديقه المشداليّ. (البجائي، 1993، ص57)

- الصفات الحميدة، واختلاف أحوال الأصدقاء

ذكر البجائيّ في "رسالة الغريب إلى الحبيب"، الكثير من الصفات الحميدة التي يجب أن يتحلّى بها الأشخاص من مثل؛ العفّة والقناعة والرضا؛ حيث يقول: "من يستعفف يعفه الخلّاق، ومن يستغن يغنه الوهّاب الرّزاق... والقناعة رأس مال اللبيب، وبضاعة الفقير الغريب". (البجائي، 1993، ص75)

ويجعل البجائيّ الأصدقاء وأحوالهم في أصناف "فمنهم من يعدّ حبّه للادخار لدار القرار، ومنهم من يستنهض في عوارض الأوطار لحوادث الليل والنهار، ومنهم من يقنع بدعائه، ويقتدى بنوره وسنائه، ومنهم من يعرف لوفائه، وخالص ودّه وصفائه، ومنهم مَنْ يحبّ لنوله وجوده وكماله، ومنهم من يتعيّن رفع قدره لسابق ودّه وكريم عهده، ومنهم من لا يعبأ بصحبته، ولا يلتفت إلى معرفته لرداءة طبعه ونذالة أصله، ومنهم من له في الصحبة حالات شبه الخيالات والمحالات" (البجائي، 1993، ص76-77)

وهو بهذا، يرى أنّ الأصدقاء إمّا "صديق فاضل، سيّد عالم، حسيب كريم، أو ساقط جاهل مراهن، ساقط الهمّة لئيم" ويقول: (البجائي، 1993، ص77)

وكـــــلّ أخٍ يقول أنا وفيّ ولكـن ليس يفعلُ ما يقولُ

سوى من هو ذو حسب ودين فذاك لما يقولُ هو الفعولُ

ثانيًا: الجانب النفسيّ

ـ الألم والحزن

أخبرنا البجائي في رحلته أنّه لم يواصل السير إلى بجاية بعد رحلته الأولى، وأنّه رجع من تونس إلى الحجاز في الحجة الثانية. (السخاوي، 123/11)، وهنا يصف البجائي استعداده للرحلة ويعترف بما رافقه من ألم وحزن؛ إذ يقول: "فقمت مبادرًا للودائع متهيئًا للرحيل، وأنا من عجب أمري في عريض طويل، إنْ سطا عليّ ألم البين وفتّ في كبدي فتحت له صدرًا... وأقبلت مودعًا لسيدي داعيًا لأيّامه....". (البجائي، 1993، ص50) وقد أفاض الرّحالة حديثه عن صديقه المشداليّ ومن لقي من العلماء وترجم لعدد كبير منهم، كما يظهر في رسالته؛ حيث "هاجر إلى المشرق العربيّ مبكرًا، فمّر بتونس ومصر والقدس وطرابلس الشام، ثمّ استقرّ في الحجاز". (البدوي، 2014،ص 406)

ويشير البجائيّ في مراسلته لصديقه المشداليّ إلى اعتلال وضعف أصابه بسبب الحمّى؛ حيث استمر في وصفها وأثرها فيه ومدى الألم الذي أحسّه بسببها وطلبه الفرج والشفاء، فقال: " وهذه تزور مع النهار جهارًا". (البجائيّ، 1993، ص 53)

- الحنين للأوطان والتشوّق إليها

حرّك الحنين إلى الديّار والوطن مشاعر البجائيّ، فأخذ يصف أحاسيسه، وما يراه، كلّما اشتد به داعي الشوق، فيقول: "لي فيه من الأمر ما لا يطاق حتى كنت أتعلل بالرياح، وإيماض البروق في الغدو والرواح، وكانت الذكرى لذلك تقلقني وإلى المعاهد المألوفة في كلّ وقت تشوقني" (البجائي، 1993، ص72) وقد كان ذلك في رحلته الأولى، أمّا في رحلته الثانية فالذكرى لا تحرّكه ولا تطربه ولا تهيّجه ولا تعجبه بسبب قربه من الرسول - صلّى الله عليه وسلّم - وفي ذلك يقول: (البجائي، 1993، ص72)

إذا كنتُ جار المصطفى ونزيله فيقبح بي شوقي لأهلي وجيراني

أأرغبُ عن دارٍ بها الخير كلّه وفيها هوى القاصي وأمنية الدّاني

وهو مع ذلك يتشوّق إلى السكّان والأصدقاء والجيران الذين كانت بهم الأوطان عامرة؛ فيقول: (البجائي، 1993، ص73)

إذ الدّيار ديارٌ والنعيم بها والنّاس ناسٌ وفي الأوطان أوطار

ويقول أيضًا: (البجائيّ، 1993، ص75)

أنا اليوم جار للنبيّ بطيبة فلا طيب في الدّنيا يقاس بطيبي

فرحلة البجائيّ أظهرت هويّته؛ وكشفت أحاسيسه واضطراب مشاعره في الغربة والحنين والتّشوّق،"...واضطرمت في الحشى من الشّوق الجمرات، وفاضت العبرات..." (البجائيّ،1993،ص74)

- القرب والبعد وعلاقتهما بالحبّ

أظهرت "رسالة الغريب إلى الحبيب" هوية صاحبها البجائيّ إذ تجلّت فيها ملامح شخصيته ومشاعره ونفسيته وعاطفته تجاه المحبوب والصديق، فبشكل عام يعكس الأدب صور النفوس المعذّبة والحزينة المتألّمة، التي تتجرع مرارة الغربة والبعد والفراق، والمشاعر التي تفيض بالشوق والحنين لأيّام القرب واللقاء بين المحبين. فالقرب والبعد يا سيدي اختلفت فيه آراء الرجال ومذاهبهم، وتشعّبت فيه أقوالهم ومقاصدهم، فمنهم من يرى البعد ويؤثره في القرب، ويرى مع ذلك أنّه من أهل الحبّ... ومنهم من يرى القرب هو الأمل المطلوب وأنّ البعد هو المرهوب..." (البجائي، 1993، ص83)

وفي ذلك أنشد الأبيات الآتية يخاطب صديقه الحبيب البعيد القريب: (البجائي، 1993، ص84)

إن قلت غبت فقلبي لا يصدقني إذ أنت فيه مدى الأيام لم تغب

أو قلت ما غبت قال الطرف ذا كذب وقد تحيّرت بين الصدقِ والكذبِ

والقربُ والبعدُ في وقتٍ معًا عجب وحاضر غائب من أعجبِ العجبِ

والبجائي كما يظهر في رسالته وأشعاره يكره البعد والجفاء ويحبّ القرب والصفاء، وقد استطاع البجائي أن يجمع اخبار المشداليّ من أفواه المعاصرين والمرافقين له وآرائهم فيه مدحًا ونقدًا.

ثالثًا: الجانب التاريخيّ

ـ رحلة البجائيّ الأولى

أشار البجائيّ إلى رحلته الأولى في رسالته"... وإنّي لمّا ارتحلت الرحلة الأولى لقضاء حجة الإسلام، ما أقمت بالحجاز إلّا بعض أعوام، وعدت إلى أن وصلت إلى حضرة تونس..." (البجائيّ،1993،ص73)

ويلاحظ أنّ البجائيّ لم يعرض إلى وصف الأماكن والبلدان التي زارها في " رسالة الغريب إلى الحبيب"، وربما فعل ذلك في كتابه المفقود "أنس الغريب وروض الأديب" الذي أخبر صديقه المشداليّ عنه في رسالته، بأنّ له كتابًا سمّاه" أنس الغريب وروض الأديب" جمعه مدة الهجرة الثانية إلى الحجاز، وأنّه قسّمه إلى مقدمة وفصول. " ويعتبر هذا القسم من الرسالة هامًا جدًا، ليس فقط لأنّه يتحدث عن كتاب مفقود لأبي عصيدة، ولكن لأنّ جزءًا من هذا الكتاب تضمن وصف الرحلة التي قام بها أبو عصيدة من بجاية وتونس إلى الحجاز عبر مصر" (البجائيّ،1993،ص39).لأداء فريضة الحجّ، ومجاورة الرسول عليه الصلاة والسلام، وتحدث فيه عمن لقيه خلالها، وإيراد العديد من المسائل العلميّة والصوفيّة، والكثير من أخبار صديقه المشداليّ التي" جمعها من أفواه المعاصرين والمرافقين عندما كان أبو الفضل في الشّام والقدس..." (البجائيّ،1993،ص26)

ـ مراسلات البجائيّ إلى المشداليّ

لقد ذكر البجائيّ في رسالته أنّه قد كتب لصديقه المشداليّ عدّة خطابات؛ كان أولها بعد عام من رحيله من مصر إلى الحجاز وقد أخبره فيها عن رحلته منذ أن غادر مصر حتى حلّ بالمدينة، أمّا الخطاب الثاني فكان لطبقة أدبيّة، نزعاتها مشرقيّة وألفاظها مغربيّة، حيث تضمّنت الأخبار المغربيّة والمشرقيّة (البجائيّ، 1993، ص35 الشوابكة، 2007، ص109)، أمّا الخطاب الثالث فتحدّث فيه عن مرضه وشفائه (البجائيّ،1993،ص53)، ثم ختم مراسلاته بخطاب شفويّ أرسله البجائيّ مع الشيخ علي التواتي - ولم يُعثر له على ترجمة- وهو الخطاب الذي دفع المشداليّ للردّ على البجائيّ وجاءت على إثرها هذه الرسالة "رسالة الغريب إلى الحبيب"، وفي ذلك يقول البجائيّ: فما بالك سيدي: (البجائي،1993، ص57)

أَضربت صفحًا عن جميع وسائلي وطويتَ كشحًا عند ردّ رسائلي

أَظننتَ كلّ الـــــردّ يقبح فعله ردّ الجوابِ خلافُ ردّ السائلِ

- الترجمة للمشداليّ

ما كان للبجائي وهو يرسل برسالته لصديقه المشداليّ، إلّا أن يطيل في الترجمة له؛ ممّا عاينه هو وعاصره بنفسه في بجاية والجزائر ثم تونس ومصر والحجاز، بالإضافة إلى الكثير من المعلومات التي استقاها ممّن عرفوا المشداليّ في القدس وطرابلس الشام وغيرها، وقد ولد المشداليّ في بجاية حوالي 830هـ، حفظ القرآن الكريم وهو ابن سبع سنين، ترعرع في أسرة اشتهرت بالعلم والفقه والجاه... وأخذ عنه الإمام السخاوي والرّحالة القلصادي وغيرهما (السخاوي، 9، 180، 189) يقول القلصادي" "وقع اجتماعنا في مصر بصاحبنا الفقيه الفذّ في وقته ذي العلوم الفائقة والمعاني الزائقة، أبي الفضل المشداليّ، لم أر مثله في تحصيل العلوم وتحقيقها، أخذ في كلّ علم بأوفر نصيب وضارب فيه بسهم مصيب" (1978، ص127) توفي في بلاد الشام سنة (864هـ).

وقال البقاعي في ذلك: "جاء الخبر المشؤوم أنّ الإمام محقّق الزّمان ونادرة الأوان أبا الفضل محمد ابن الإمام أبي عبدالله محمد المشداليّ البجائيّ المغربيّ مات في أوائل هذا الشهر (أي محرم) أو أواخر ذي الحجة سنة أربع وستين وثمانمائية". (البقاعي، 1992، 175/3)

وقد أشار البجائيّ في معظم الرسالة، إلى الحديث عن صفات أبي الفضل المشداليّ وعلمه وشيوخه وتلاميذه، وهو بهذا يقدّم ترجمة واسعة لأبي الفضل المشداليّ (البجائيّ، 1993،ص26-94).

رابعًا: الجانب الديني

مجاورة الرسول -صلّى الله عليه وسلّم-

ذكرنا سابقًا، أنّ الدافع الدينيّ من أهم دوافع الرحلات إلى المشرق؛ لأداء فريضة الحجّ، والبجائيّ ممّن رحلوا إلى الحجاز وفضّلوا مجاورة الرسول – صلّى الله عليه وسلّم – بل رفض الرجوع إلى وطنه لتعلّقه وارتباطه بالحرم النبويّ بعدّه من أهم مراكز العلم بعد الحرم المكيّ لتوفر العدد الكبير من العلماء والشيوخ المجاورين والمقيمين فيه. وهو يشكر الله ويحمده على حاله ويستغفره؛ فيقول: " فو الله يا سيّدي ما العبد إلا في جلائل نعم الله الجسام... لما ظفر بغرضه المطلوب وأمله المرغوب، وبلغ حضرة سيّده ومولاه، الذي أولاه الله من الإحسان على يديه ما أولاه، وألقى بعد حطّ الرّحال عصا التّسيار، وناجى نفائس الآمال بعرصات الدّيار؛ حيث الرغائب المقصودة... العين فيها بحمد الله، مشغولة عن المحرّمات، بالنظر في المصاحف المعظّمة والمصنّفات... والقدم مقيّد عن السعي لغير الطاعات،... والقلب متقلّب في عوالم اللّذات لا نتباهه من الرقدات والغفلات، والذهن فارغ من شوغل الأوهام الرديّة،. .. والوقت قد طاب والرقيب قد غاب، والحبيب قد جاد برفع الحجاب... تتجدد على العبد كلّ يوم أصناف المسرّات، وتتسابق إليه أرهاط الفتوحات والهبات... فهذا هو غرض منتهى النفوس ومناها، وفخرها بين الورى وسناها، وغاية صدق نية العبد التي نواها وكان يتمنّاها" (البجائي، 1993، ص63)، وقد تحقق للبجائيّ أمله في مجاورة الرسول –صلّى الله عليه وسلّم-فلا مطلب آخر يتمناه.

ومن الأعمال التي قام بها وهو في حضرة الرسول - صلّى الله عليه وسلّم - قراءة الجامع المسند الصحيح للبخاري، وكتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى - صلّى الله عليه وسلّم -، في شهر رمضان المبارك وقد حضر هذه الختمة جمع غفير من العلماء، ووصف ذلك بقوله: "وكان محفلًا حفلًا جليل القدر حضرهُ جماعة كبيرة من الفضلاء والصالحين من جيران سيد المرسلين، وجمّ غفير من العلماء الأعلام والسادات الكرام، ومن كانت بالمدينة المشرفة من الزّوار والأضياف، ومن شملته مراحم الألطاف، وكانت ساعة عجيبة الوصف بديعة المقدار..." (البجائيّ،1993، ص65)

وإذا دخلت الأشهر الحرم تهيأ، وأحرم بين يدي رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم -ورافق أفواجًا هاموا في الحضور والمغيب.

وقد وصف البجائيّ أداء مناسك هؤلاء القوم بالتفصيل وأنشد قصيدة عند حضرة الرسول -صلّى الله عليه وسلّم - قال فيها: (البجائيّ، 1993، ص69)

بِفَيض فضلك حقّق سيّدي أملـي ولا تكلني إلى علمي ولا عملـي

فما سوى حسن ظنّي فيك ينفعني وإن يخب فيك هذا الظّن واخجلي

وهنا، يصف الحـــالة النفسيّة التي يكون فيها العبد وهو في مجاورة الرسول - صلّى الله عليه وسلّم-، حيث يُستشفّ من قصيدته أنّ هذه المجاورة تطهيرًا للنفس وسيرًا على طريق الحقّ.

- مشروعية المجاورة وبيان رأي الإمام مالك بن أنس فيها

من الموضوعات التي وردت في الرسالة مشروعية المجاورة؛ حيث أرسل أحد أصحاب البجائي رسالة إلى البجائيّ يطلب منه العودة إلى بلاده ويلومه على هذه الإقامة الطويلة ويذكّره أنّ هذه المجاورة مكروهة عند إمام البجائيّ مالك بن أنس؛ حيث يقول له: "أليست المجاورة مكروهة عند إمامك والإلمام الكثير لا يشكي من أفرط فيه وطفّف، وقديمًا يقال رحم الله عبدًا زار وخفّف، وأمر المجاورة عظيم وخطرها جسيم، ومن ذا الذي يستطيع القيام بما عليه في ذلك... وأيضًا محبة الوطن من الإيمان وتذكّر الدّيار والمغاني من كمال الإحسان... هذا وأمر الغربة على كلّ حال ذميم، وعيشه لم يزل قط سقيم... لا سيّما إن قصرت النفقة ونفذ (كذا) المصروف وطالبتك النفس بما تعودت... وأمر الحاجة إلى الناس والسؤال من أصعب الأحوال لا سيّما لمن لم يتعود ذلك في الحلّ والارتحال، وشيمته البذل والجود والإفضال... وأيضًا ربّما هجرك على ذلك أعرف الأقارب وأقرب الإخوان والأتراب، لكون لم يبق لهم فيك مطمع وصلة ولا أمل اقتراب، ولا تعلّل برجوع ولا إياب". (البجائيّ، 1993، ص71)

ويبيّن البجائيّ هنا، رأي الأمام مالك في المجاورة، وكراهيته لها، أنّه من باب الخوف منه على الناس وخشية قصورهم عن القيام بحقّ واجب المقام لا سيّما مع طول الليالي والأيام، فيكون عدم الإقامة عنده أفضل.

- الشعائر الدينيّة في الحجاز

عكست رسالة البجائي صورة واضحة عن الشعائر الدينيّة في الحجاز فالناس من شتّ الأطياف؛ حيث سلّطت الرسالة الضوء على أصناف التبتل في العبادات وأسرار الطاعات، والمدائح النبويّة، والصلوات، وقراءة القرآن الكريم، وانشغال الذهن بالطاعات، والاستغفار، والتوسّل بالرسول - صلّى الله عليه وسلّم- وفي ذلك يقول البجائي: (البجائيّ،1993، ص64)

هاجرت نحوك من أقصى البلاد وقد هجرتُ أهلي وأحبابي وأملاكي

وقد نزلت حمالك الآن معتضدًا أسير ذنب عظيم حائرًا باك

وعادة العرب العرباء جارية حمى النزيل وكشف الضيم للشاكي

وكما -ذُكر سابقًا – فإنّ الهدف الرئيسيّ من رحلة البجائي، هو أداء فريضة الحجّ وزيارة الأماكن المقدسة، الأمر الذي سمح بالتقائه بالكثير من

العلماء والأسماء التي كان لها الدور الكبير في مجالس العلم والمعرفة.

الخاتمة:

أبرزت الدراسة أهمية رحلة أبي عصيدة البجائيّ "رسالة الغريب إلى الحبيب" في جوانب كثيرة منها:

- أنّ الدافع الرئيسيّ الذي من أجله قام أبو عصيدة البجائيّ برحلته؛ هو تعظيمه لشعائر الله أي أداء فريضة الحجّ ومجاورة الرسول –صلّى الله عليه وسلّم -، بالإضافة إلى طلب العلم ولقاء الشيوخ والعلماء.

- تُعدّ رحلة البجائيّ وثيقة مهمة أرّخت للدرس العلميّ بما فيها من ترجمة لصاحبها وللشيوخ الذين التقاهم.

- عكست الرحلة شخصية البجائيّ وانطباعاته في الكثير من المشاهدات والمذكرات، وأمدّتنا بمعلومات لأحوال المسلمين الاجتماعيّة والاقتصاديّة والسياسيّة والفكريّة في تونس ومصر، وصوّرت الواقع النفسيّ للرّحالة وما تركته زيارته لمدينة الرسول – صلّى الله عليه وسلّم_ من أثر طيب.

- كانت رحلة "رسالة الغريب إلى الحبيب" ثمرة المراسلات بين البجائي وصديقه المشداليّ، ضمّنها شذرات علميّة وطرائف أدبيّة، وصوّر مشاعره تجاه المشداليّ.

- لم تنل الرحلة اهتمامًا كبيرًا من الدراسين والباحثين وما زالت بحاجة إلى الكثير من جوانبها، ولا سيّما الخصائص الفنيّة، كظاهرة التناص على سبيل المثال.

المصادروالمراجع

القرآن الكريم.

البجائيّ، أ. (1993). *رسالة الغريب إلى الحبيب*. (ط1). لبنان: دار الغرب الإسلاميّ.

البخاري، م. (1976).. (ط1). جامعة دمشق: دار طوق النجاة.

البدوي، آ. (2014). الرّحالة الأندلسيون والمغاربة ورحلاتهم من (ق 3هـ ق 9 هـ) تقصّ وعرض. *دراسات: العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة*، 41(2).

البقاعي، إ. (1992). *إظهار العصر لأسرار أهل العصر (تاريخ البقاعي)*. (ط1). القاهرة: عربية للطباعة والنشر.

حسين، ح. (1976). *أدب الرحلة عند العرب*. القاهرة: الهيئة المصريّة العامة للكتاب.

ابن خلدون، ع. (2001). *المقدمة*. بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر.

زيادة، ن. (1962). *الجغرافية والرحلات عند العرب*. بيروت: مكتبة المدرسة، دار الكتاب اللبنانيّ.

السخاوي، ش. (د.ت). *الضوء اللامع لأهل القرن التاسع*. بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة.

سعد الله، أ. (1990). رحلة أبي عصيدة البجائي، من بجاية إلى الحجاز. *مجلة العرب*، (9، 10).

الشوابكة، ن. (2007).أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري. (ط1). الأردن: دار المأمون للنشر والتوزيع.

الضمادي، س. (2017). *أدبيّة النص الرحليّ السعوديّ. رسالة دكتوراة*، كلية اللغة العربيّة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميّة، السعوديّة.

القلصادي، أ. (1978). *رحلة القلصادي الأندلسي*. الشركة التونسية للتوزيع.

محمد، س. (1987). *المدائح النبويّة في نهاية العصر المملوكي. رسالة دكتوراة غير منشورة*، جامعة دمشق.

الياقوت، ع. (2001). *أدب الرحلة الحجازيّة عند الأندلسيين من القرن السادس حتى سقوط غرناطة. أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراة في الأدب العربيّ*، كلية اللغة العربيّة، قسم الدراسات العليا، فرع أدب جامعة أم القرى المملكة العربيّة السعوديّة.

References

The Holy Koran.

Al-Bajai, Ahmed Abu Asaida (865H). (1993), Xavier ' s message to Al Habib, Ta ' izzhi ' , Abu Qasim Sa ' dallah, Dar al-Gharb al-Islami, I1, Beirut, Lebanon.

Al-Bukhari, Mohammed Bin Ismail Abu Abdullah, Ja ' afi (256h). 1976 Al-Bukhari, investigation by Mohamed Zahir bin Nasser Al-Nasser Al-Nasher: Dar Toq al-Najeh, photographed on Sultaniyah, with the addition of the numbering of Mohamed Fuad Abdel-Baki, I1, explanation and comment by Mustafa Deb al-Baga, Damascus University.

The Bedouin, Amna Sulaiman, 2014, the Andalusian and Moroccan Travellers and their journeys from 3H-9E, Survey and

Presentation, Humanities and Social Sciences Studies, C41, No. 2.

Beqa ' i, Ibrahim bin Omar bin Hassan Rabat (885h). (1992), Presentation of the Age of the Secrets of the Age of the Age (History of the Bekaa), Investigation by Dr. Mohamed Salim bin Zahid al-Aufi, Arab Printing and Publishing, Cairo.

Hussein, Hassani Mahmoud (1976), book literature at the Arab, Cairo, Egyptian Public Book Authority.

Ibn Khaldoun, Abdurrahman Bin Mohammed Bin Khaldoun Al Hadrami (T808H). (2001), Introduction, Seizure of Meten and Status of footnotes Khalil Shehada, Suhail Zakar Review, Think House for Printing and Publishing, Beirut.

In addition, we say, (1962), the geography of Arab trips, Beirut, the school library, the Lebanese Book House.

Al-Sakhawi, Shamsuddin Abu Khair Mohamed bin Abdulrahman bin Mohammed bin Osman bin Mohammed (T902H). 9th Century Shining Light, Publications of the Life Library House, Beirut.

Sa'dallah, Abu Qasim (1990), "Abby Essaida Al-Bajay Flight, Bejaia to Hijaz," Al-Arab magazine, Nos. 9, 10.

Shuwabaka, Nawal Abdurrahman, (2007), Andalusia and Moroccan literature until the end of the ninth century Hijri, Safe Publishing and Distribution House, I., Amman, Jordan.

Samadi, Salim Mohammed Salem (2017), Literary. Saudi Travel Text, Ph.D. Message, Arabic Language College, Imam Mohammed Bin Saud Islamic University, Saudi Arabia.

Al-Qassi, Abulhasan Ali Al-Andalsi (T891e).1978) Study and investigation of Mohamed Abu Al-Ajfan, Tunisian Distribution Company.

Mohamed, Salem Mahmud (1987), Al-Nawayah at the end of the royal era, Ph.D., unpublished, Damascus University.

Yaquat, Abdullah bin Osman, (2001), literature on the Hajazia flight, at Andalusia's from the sixth century to the fall of Granada, a doctoral dissertation in Arabic literature, Arabic Language College, Department of Higher Studies, University of Um Villages literature branch, Saudi Arabia.